الفكرُ اللّسَانيّ في دَلائِل الإعجَازِ للجُرجَانيّ
قراءةٌ في تَبلوراتِ الأسسِ اللّسَانيّة

د. جواد عامر ابن حمو
المغرب العَرَبيّ

ملخص البحث

تقدم هذه الدراسة مقاربة لِسَانيّة تحاول الحفر في التُّرَاث اللُّغَويّ العَرَبيّ القديم وتحديدا في كتاب تراثي كبير شكل بؤرة للدرس البَلاغيّ العَرَبيّ بما حواه من تأصيلات نَظَريّة تجاوزت الأنساق التحليلية للّغة وشكلت الأسس الأصول لعدةٍ مَفَاهيميّة استخدمَها الجهاز اللّسَانيّ الحديث منذ فرديناد دي سوسير ومرورا بمدارسَ لِسَانيّة كبرى كمدرسةِ جنيف وبراغ ومدرسةِ كوبنهاغن، وصولا إلى المدرسةِ التوليديةِ في أمريكا مع تشومسكي، وهي مدارسُ استطاعت أن تبني طروحاتِها اللّسَانيّة مستدعيةً الأجهزة المَفَاهيميّة والتأصيلات النَظَريّة، التي أرسى دعاماتها الفكر اللُّغَويّ العَرَبيّ القديم، عبر رموزه الكبيرة كالخليل والجاحظ وابن جنّي والجُرجَانيّ، فكان تركيزُ الدراسة على إمام البلاغة العَرَبيّة في كتابه «دَلائِل الإعجَازِ» الذي رأيناه أكثرَ عُمقا من الناحية الابستمولوجيّة، من حيث التنظير والتحليل اللّسَانيّ الذي سيقود مجموعة من اللّسَانيّين الغَربيّين، إلى تطوير الطروح اللُّغَويّة التي ستحتضنها فروع مَدرَسيّة مختلفة، وحتى لِسَانيّات النَّصّ وهي تتخطّى حدودَ دلالة الجُملة إلى دراسةِ النَّصّ في كلّيته، لم تكن بمنأى عن الأصولِ النَظَريّة التي أرسى «دَلائِلُ الإعجَازِ» أسسَها المَعرفيّة.

الكلمات المفتاحية: الفكر اللساني، الجرجاني، دلائل الإعجاز، لسانيات النصّ

منهج البحث

ولمقاربة الطرح اللّسَانيّ بين دَلائِل الإعجَازِ واللّسَانيّينَ المُحدَثينَ على اختلاف انتماءاتهم المَدرَسيّة، كان المنهج المقارن طريقا للكشف عن وجوهِ الاختلاف ونقاط الالتقاء بين الجُرجَانيّ وغيره من اللّسَانيّين الغَربيّينَ عبر عرض قضايا كبرى في الحقل اللّسَانيّ كالبنيةِ والدال والمَدلُول والسياق من أجل وضعها في كفّة التُّرَاث وكفّة الدرسِ اللّسَانيّ الحديث.

سيرالبحث

بعد عرض الإشكاليّة المؤطّرة لقضيّة البحث، نستحضر السياقَ الثقافيّ لكتاب دَلائِل الإعجَازِ، ثم نعرج على القضية الكبرى التي شكلت محور الكتاب وهي قضية النّظم التي انصهرت في بوتقتها مفاهيم لِسَانيّة لم يكن الجُرجَانيّ نفسُه يدرك أنَّهُ كان يسير فيها على وقع تأسيس مشروع لِسَانيّ علميّ سابق على العصر، سأعمدُ إلى بيان أهمّ المفاهيم اللّسَانيّة التي أسّس لها الجُرجَانيّ قبل اللّسَانيّين المُحدثينَ فيسلك البحث طريق المقارنة بين سوسير والجُرجَانيّ في تناولِهما لثنائيّة الدَّال والمَدلُول ثم مفهوم البنية أو النسق وبين إمام البلاغة وتشومسكي في عرض مفهوم النحويّة واللانحويّة، ثم نعقد مقارنةً أخرى بين الجُرجَانيّ وفيرث وياكوبسون حول مفهوم السياق ويكونُ الانتهاءُ إلى عقد مقارنةٍ بين لِسَانيّاتِ النَّصّ والجُرجَانيّ.

مقدمة

يشكل التُّرَاث بمختلف تركيباته المَعرفيّة منطلقات إبستمولوجيّة تعبّد الطريق للجديد المَعرفيّ، أو تحدث نوعا من القطيعة الابستمولوجيّة كما حصل مع النَظَريّات الفيزيائية، من أجل تأسيس مشروع مَعرفيّ جديد دون أن يشملَ ذلك المعارف الإنسانية الأخرى التي يقوم بعضها على بعض، لأنَّ الحديث عن القطيعة كما زعم ذلك «غاستون باشلار»(١٨٨٤ــ ١٩٦٢) كان وليد ظرف تاريخي شهد ثورة الفيزياء وقيام معارفها المتمردة على أنقاض إبستمولوجيّة مهدمة، لذا فالناظر في التُّرَاث العَرَبيّ سيجد أنَّهُ تراثٌ بنى نفسه من ثقافات متعددة انصهرت في بيئة عَرَبيّة اغتنت مَعرفيّا اغتناءً لم يُسبق إليه في التاريخ العَرَبيّ، جعلها تستبقُ العصر الذي نشأت فيه وتؤسّس لمشاريعَ علمية وفكرية وأدبية فتقتها عبقريات عَرَبيّة يشهد لها التاريخ بالتفوق، فكانت براعة العربِ في العلوم الدقيقة واضحة المعالم وأثرُهم في الطبّ والكيمياء والفلكِ والبصريّاتِ والرياضة وغيرها كذلك، ولهم بَيِّنٌ الأثر في العلومِ الجديدة، كبراعتِهم في علم الأصوات منذ زمن «الخليل بن أحمد الفراهيدي «(١٠٠ـ ١٧٠هـ)، مرورا بابن جني (٣٢٢هـ ـ ٣٩٢هـ)، وصولًا إلى ابن سينا (٣٧٠ـ ٤٢٧هـ) في رسالةِ أسباب حدوث الحروف، وأرست الثقافة العَرَبيّة مشروعاتٍ نقدية وتداوليّة ستشكل لبناتٍ لمدارس ونَظَريّات أدبيّة حديثة مثلما أسّست لمشروعات لغويّة وطروحات لِسَانيّة في مستويات متعددة من داخل اللسان العَرَبيّ، فطرحت قضايا ذات أبعاد فلسفية وجوديّة كقضيّة خلق اللُّغَة بالرغم من منحاها الروحي، إلا أنَّها ستسلك منحى لِسَانيّا

محضا، وستكون محط جدال محتدم فكان الحديث عن توقيفيــة اللُّغَة واصطلاحيتها، مع ما خلقه هذا الأمر من حيرة كبيرة لدى اللُّغَويّين وشــغلت قضية اللَّفظ والمَعنَى العمق الفكــري للغويين والمتكلمين، ودار حولهــا جدل كبــير بين مناصر للَّفــظ ومؤيدٍ للمَعنــى مع ما ســمحت به القضية مــن تفريعات مقوليّة، ســتأخذ الدرس اللُّغَويّ العَرَبيّ بعيدا نحو قضايا شــديدة الحساســية اللُّغَويّــة، كالاعتباطيّة والنحويّــة واللانحويّــة والتوليديّــة وغيرهــا مــن المفاهيــم اللّسَــانيّة، التــي اصطبغــت في الأنســاق الجديدة بالحداثة المزعومة التي صرفت وجهها عن المشروع التُّرَاثي العَرَبيّ، الذي أرسى دعاماتِه بشكل فريد من نوعــه إمامُ عصره وحجةُ زمانه في البلاغة العَرَبيّة الإمام عبد القاهر الجُرجَانيّ في كتابِه دَلائِل الإعجَازِ.

السياق الثقافي لدَلائِل الإعجَازِ

ألف الشــيخ عبــد القاهر الجُرجَانــيّ (٤٠٠ ـــ ٤٧١هــ) كتابــه دَلائِل الإعجَازِ، في وقت اشــتدَّ فيه الجــدلُ الكَلاميّ بــين المعتزلة والأشــاعرةِ من جهةٍ وبين المذاهــب الكَلاميّة وأربــاب الديانات الأخرى، التي انصهــرت في التركيبة الاجتماعيّــة بعد امتداد الرقعة الجغرافية لبلاد الإسلام، فكان لزامًا على كُلّ طــرف أن يدافعَ عن معتقده ومذهبه، لاســيما وأن التأثير الثقافي الذي مارسته الهند وفارس واليونان، كان بعيــدَ الأثــر في الثقافة العَرَبيّة حتــى إن المُبرّد صاحــب الكامــل (٢١٠ـــ٢٨٥هــ) مــا ألّف كتابه هــذا إلا ردًّا لاعتبــار الثقافة العَرَبيّة التي انســاقت معجبة وراء ثقافة الآخر، إذ شدّتها الهند بموروثها الحكائــي الأســطوريّ وعلــوم التنجيــم والفلــك والرياضــة، وجذبتها فارس بحُســنِ تدبيرها لأمورِ السياســةِ والعســكر وأيام فارس وتاريخ ملوكها، وكان للمُعجــزةِ اليونانيــة أثر أكبر جَسَّــده فكرُها الفلســفي وإرثها الأدبي وعلومها، التي بلغت فيها شأوا عظيما فكانت الترجمات قبل عصر الجُرجَانيّ قائمةً على قدم وســاق، مما ســمحَ للبيئــةِ الثقافية بالانتعــاشِ بل بالاحتدام الفكريّ الذي ولّد نوعًا من التصادم الثقافيّ الذي أغنى الساحة العَرَبيّة وأسهم إيجابا في خلق بيئة فكرية حيّة ظلت تنمو مع مرور القرون مستفيدة من المنطقِ الأرسطيّ «الأرغانون» تحديــدا في خلق بيئــةِ الجدل القائمة عــلى البُرهان والتّعليل والقياس والاســتدلال وغيرهــا من أدوات المنطق وميكانيزمات اشــتغاله، وهذا الأمرُ بدا جليّ الأثر في الدرس النقدي العَرَبيّ مع ابن قتيبة (٢١٣ـ ٢٧٦هــ) وابن رشيق (٣٩٠ـ ٤٥٦هــ) وقدامة بن جعفــر (ـ٣٣٧هــ) الذي ظهر أثر المنطق في كتابِه نقدِ الشِّــعر أكثر جلاءً من الشِّــعر والشُّــعراء ومن العُمدة، ولابدّ أن دَلائِل الإعجَازِ وهو يرسم خطواتٍ جديــدة في درسِ البلاغةِ العَرَبيّة مقيما معمارَه على ثنائيّــة اللَّفظ والمَعنَى التي شــكلتْ بــؤرةً من بؤر الجــدلِ الكَلاميّ بين المعتزلة والأشــاعرة، ما هو إلا ثمــرةٌ من ثمراتِ هــذا الاغتناء الفكــريّ، الذي جاء ليدافــع عن إعجاز القرآن ويبرزُ مَوَاطن البلاغة فيه ومواضعَهــا وكيفيات تشــكلها الذي اعــدّهُ ائتلافَ اللَّفــظ والإتيان بالألفــاظ بما يتوافــق مع مواضع النحــو لخدمــة غــرض المتكلــم، في زمــن كان فيه المعتزلــة يؤمنون أن إعجاز القــرآن مردُّه إلى اللَّفظ لا إلى النّظــم، فأقــام الجُرجَانيّ دفاعَــه القويّ عن قضيتِه بحِجَاج المتكلمــين يخضعه للمنطق العقليّ وبحِجَاج لغويّ يتركــه في يد اللُّغَة تارة أخرى دون أن يشير إلى معتزلي واحد في كتابه أو يذكره باسمه، لأنَّ مــا كان يهمــه هــو القضيــة وليــس أصحاب

القضية، فقد مضى الجُرجَانيّ في كتابِه مضيّ المدافع يقيم الحجّة تلو الحجة ويعرض مسائل الخصوم واحدة تلو أخرى، فيفنّدها تفنيد المتمكّن بما لا يدعُ مجالا للردّ عليه، ممثلا للقول بشعر العرب ونصّ القرآن الكريم وما يراه مناسبا من كلام العرب على سبيل التبسيط، فكان مُرَاده من ذلك دحضَ ادّعاء مناصري اللَّفظ ومؤيدي المَعنَى في إثبات إعجاز القرآن، لذلك اجتهد الإمامُ في عرض الأدلة عبر الأبوابِ المختلفة، لأجلِ إثبات أنّ هذه الاستعمالات إنَّمَا يؤتى بها لموافقةِ المقام الذي يَستدعي الكلام، فيؤتى بالألفاظِ وفقَ نظام يتعالق فيه اللَّفظ مع ما يليه لخدمة الغرض الذي في نفس المتكلم، منتهيا إلى قضية الصّرفة؛ ليرد المعتزلة ردًّا قاطعا في اعتقادهم أن إعجاز القرآن مرجعُه الصرفة لا غير.

كما أن الإمام عبد القاهر الجُرجَانيّ قبل خوضه في الدفاع عن النّظم، كان قد عَبَّدَ الطريقَ لذلك لبيانِ فضل البيان على سائر العلوم، لأنَّهُ أصلٌ في معرفة الإعجاز لذلك كان ردُّه صارخا على مَن نقص من قدر البيان ولم يعرف فضله فقال: «إلا أنَّك لن ترى نوعًا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيَه ومُني من الحيف بما مُنيَ به، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه، فقد سبقتْ إلى نفوسهم اعتقاداتٌ فاسدة وظنونٌ رديّة، وركبَهم فيه جهلٌ عظيم وخطأ فاحش، ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما يجده للخطّ والعقد يقول: إنَّمَا هو خبر واستخبار وأمرٌ ونهي،، فكلّ من عرف أوضاع لغة من اللغاتِ عَرَبيّةً كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كُلّ لفظةٍ ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بين في تلك اللُّغَة كامل الأداة بالغٌ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه مُنتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها..»[1]، ثم راح الإمام يردّ على من ذموا الشِّعر واستهجنوا علم الإعراب، أي النحو أنَّهُ ضربٌ من التكلّف لا يعتمدُ فيه على عقل ولا يستندُ إلى أصل، فهو كالملح للطعام؛ فضلٌ وزيادة إذ يكفي أن تعرف مواضع الرفع والنصب لا غير، ليفحمهم الإمام بحجج دامغة يربطها بالنَّصّ الديني، إذ رأى أنَّ التنقيص من قيمة الشِّعر والنحو هو مسٌّ بروح الوحي الذي هو القرآن، لأنَّ إعجازه إنَّمَا يُعرف بهذين الطريقين، يقول الإمام: «وذاك أنَّا إذا كنا نعلم أنّ الجهة التي منها قامت الحجّة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت هي أن كان على حدٍ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا إلى غاية لا يطمحُ إليها بالفكر، وكان مُحالًا أن يعرفَ كونه كذلك إلا من عرف الشِّعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنَّهُ كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان وتنازعوا فيها قصبَ الرهان ثم بحثَ عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشِّعر على بعض، كان الصادَّ عن ذلك صادًّا عن أن تعرف حجّة الله تعالى، وكان مثله على من يتصدى للناس فيمنعهم أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به ويتلوه ويقرئوه..»[2]، وردَّ **الإمامُ** على مَن ادّعى في الشِّعر هزلا وسخفا: بأن المنثور أكثر من المنظوم لأنَّ إعابة الشِّعر تَستلزمُ منطقيا إعابة النثر والناس ما فعلوا ذلك، كما أن راوي الشِّعر هو حاكٍ وليس على الحاكي من عيبٍ فاللهُ تعالى حكى عن الكُفّار مقالاتِهم، يقولُ الإمام: «فانظرْ إلى الغرضِ الذي له رويَ الشِّعر ومن أجلِه أريد وله دُوّن، تعلم أنّك قد زغتَ عن المنهج وأنَّكَ مسيءٌ في هذه العداوة، وهو العصبية منك على

(١) عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز قراءة وتعليق العلامة محمود محمد شاكر مكتبة المدني ص٦.
(٢) المصدَرُ نَفسُه، ص. ص ٨/ ٩.

الشِّعر وقد استشهدَ العلماء لغريبِ القرآن وإعرابِه بالأبيـاتِ فيها الفُحش، وفيها ذكر الفعل القبيح ثم لم يعبْهم ذلك إذا كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفُحش ولم يريدوه ولم يَرووا الشِّعر من أجله»[٣]، وعلى من قالَ إنَّه مـوزون مُقفى لأنَّهُ طريـقٌ للغناء والتلهّي بهِ بأنَّ الشِّـعر لا يعيبُه الوزن، فلا يَرى الشيخُ عيبا في أن يُستشهد بالشِّـعر في فهم القرآنِ وإثباتِ علو كلام اللـه على مـا دُونَه مـن كلام البَشر، واسـتمرّ الإمام في دفاعِه القوي عن الشِّعر وتنزيه النبيّ عليه السلام عن قولهِ لتكونَ حجّته أقهرَ وأبهرَ، وللدلالة عـلى نبوتِه أظهرَ لينتقل إلى الـكلام في النحو، ويردّ على مَن صغّروا شأنه وهم يعلمونَ أنَّهُ طريق يفتحُ المغالقَ ومقياسٌ به يُعرفُ السـقيم من الصحيح،، بمـا يحويه من أبنية ومعرفـة المتغيرات كالإعلالاتِ والإبـدالاتِ والإدغام والقلبِ وما شـابه هذه الأمور، وهو أمر معروف في الأدبيات الصَّرفيّة بعُسر تناولِه نبَّه إليه الإمامُ في معرض احتجاجه أثناء دفاعه عن النحو، فلا يجعلها فرضًا على هؤلاء بل يُعاتب الإمام على الجهل بقضايا الإعراب والتركيب، كأحوال الخبرِ وصُـورِ المُبتـدإ والنّظـر في أحوالِ الصّفـةِ ومَعرفةِ فوائدها بـين التخصيصِ والتوضيـحِ والبيان، وأنّ من الصفةِ ما يُؤتى بها للتوكيد لا للفوائد السـابقة، إنّ الجُرجَانيّ وهو يسـتعرض مثل هـذه القضايا اللُّغَويّـة إنَّمَا كان يتوخـى الدفاع أولًا عن طرحه في الكتـاب لإثباتِ أنَّ إعجاز القرآن، لا يمكن أنْ يَكونَ البتة دون عودة إلى النحو وأصوله والشِّعر وأبوابه، فكان لابد من الاحتجاجِ على صحّة طرحه والردّ على الخصوم لتفنيد حُجَجهم، ومن ثم جاء بيان سـببِ تأليفِـه الكتابَ الذي قال عنه: «ولم أزلْ منذ خدمتُ العلـم، أنظرُ فيما قاله العلمـاء في معنى الفصاحة والبلاغـة والبيـان والبراعـة وفي بيـانِ المَغزى من هذه العبارات وتفسـير المُرَاد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشـارة في خفاءٍ وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب،.. وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي في حقيقـة فيها، وأنّه كما يَفضُـلُ هناك النّظم النّظم والتأليفُ التأليفَ والنسـجُ النسجَ والصياغةُ الصياغةَ ثم يَعظم الفضل وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظـيره والمجانس له في درجات كثيرة وحتى تتفاوت القيمُ التفاوتَ الشديد، كذلك يَفضلُ بعض الـكلام بعضا ويتقـدم الشيء منه الـشيء ثم يزداد فضله ذلك ويرقـى منزلة فوق منزلة، ويعلو مَرقبا بعـد مرقَب، ويسـتأنف لـه غاية بعـد غاية، حتى ينتهـي إلى حيـث تنقطعُ الأطماعُ وتحـسرُ الظنون وتسقطُ القوى وتَستوي الأقدامُ في العَجز»[٤].

لقد أوضـحَ الإمام عبد القاهر مُـرَاده من دَلائِل الإعجَازِ في سياق ثقافي، راجت فيه أجهزةٌ مَفَاهيميّة التبس بعضُها ببعض، فاحتاجتْ في نظرهِ إلى تمييز لأنَّ إطلاقَهـا كان بنفس المَدلُول، ورأى أن التفاضل في الكلام يحتاجُ إلى بيان لمواضع التفاضل وكيفيات تحقّقه، لذلك سـنجدُ الإمام يطالب بضرورة وضع المثال الـدَّال على تفاوت هذا القول على صاحبه مما جانسـه، فلا يكفـي أن يقال إن مرجـع الكلام إلى خصوصية النّظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعـض، إذ يلح الجُرجَانيّ على ضرورة التمثيل تلك الخصوصية وشرحها وبيانها وإيضاح كيفية تشـكّلها البنيوي، مثلما يَصنعُ النسّـاج من عمـل الديبـاج يقـول الجُرجَانـيّ في تشـبيه بارع لمسألة إفهام كيفيات تحقق التفاوت في الصنعة: «.. كما يَذْكُر لك من تسـتوصفه عمـل الديباج المُنَقَّش مـا تعلم به وجه دقة الصنعـة، أو يعمله بين يديك

(٣) المصدَرُ نَفسُه، ص ١٠.

(٤) المصدَرُ نَفسُه، ص. ص ٢٦/ ٢٧.

حتــى ترى عيانا كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء؟ وما ذا يذهــب منها طولا وماذا يذهب منها عرضا؟ وبم يبدأ وبم يثنى وبم يثلث؟ وتبصر من الحســاب الدقيق،ومن عجــب تصرف اليد ما تعلم معه مكان الحذق وموضع الأستاذية». (٥)

إن التصــور الــذي وجــه الجُرجَانــيّ في دَلائِــل الإعجَــازِ، كان محكومــا بأبعاد لِسَــانيّة عميقة لم يكــن الجُرجَانيّ نفســه يــدرك أنَّهُ كان يســير على وقع مشروع مَعرفيّ جديد، ســترسى فيه لبنات أولى للدرس اللّسَــانيّ الحديث، فعبقرية الرجل جاوزت آفاق عــصره، وعُمقُ فكرته كان أبلــغَ من أن تصل إليــه الأفهام، صحيح أن الإمام وجد الأســسَ الأولى للبلاغةِ العَرَبيّة قائمة في البيان والتبيين مع الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وقُدامة بن جعفر(ت٣٧٧هـ) في نقد الشِّــعر والرماني (ت٣٨٤هـ) في النكت والباقلاني (ت٤٠٣هـــ) في إعجــاز القــرآن وغيرهــم، وكان للبلاغــة الأفلاطونية والأرســطية دور هــام في هذا الســياق المَعرفيّ خاصة فن الخطابــة «ريطوريقا» لأرسطو(٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق/م) وما أرساه هذا الكتاب من أســس بَلاغيّــة لا يَخفى دورهــا في هذه المرحلة من التاريخ، لكن الجُرجَانيّ وهو الإمام الذي يمتلك الرؤيــة الثاقبة والبصر الحديد، والعصر الذي تميز بتأجــج قضيــة الدفاع عن مكمن إعجــاز القرآن في زمن سيطرة المعتزلة، باعتبارها سلطة المعرفة التي تمتلــكُ الســداد وأنّ أي مخالفــة لمزاعِمها تجرّ على المخالــف العقاب والقتل، فكان مــن الصعب وقتها التجرؤ على ممارسةِ أي شكل من أشكال المعارضة المَعرفيّــة والفكريــة والعقدية، لكــنّ الجُرجَانيّ في دَلائِل الإعجَازِ لم يجدْ بُدًّا من أن يقيم لَبناتِ نَظَريّته ويدحــض بها الخصوم، دون أن يفكرَ وهو يســيرُ بهدوء في كتابه، في أنَّهُ كانَ يُرسي الأســس اللّسَانيّة الكبرى التي استلهمها اللّسَانيّون في شَتّى المدارس، مثلما ستســتلهمها الأســلوبية ونَظَريّــة النَّصّ من بعد الطروحاتِ اللّسَــانيّة الكــبرى أقصد ما أنتجته المــدراس والحلقاتُ اللّسَــانيّة في العالم، كمدرســةِ جنيفَ وحلقةِ براغَ ومدرســةِ كوبنهاغنَ والمدرســة التوليدية وغيرها .

إنّ التاريــخ اللّسَــانيّ الحديث وهــو يبتدئ كما هو معروف ـــ بالمَعنَى المَدرَسيّ ـــ مع الســويسري فردنانــد دي سوســير (١٨٥٧ـــ١٩١٣م)، حين أصــدر كتابه الشــهير «محاضرات في علم اللســان العــام» تلميذاه تشــارلز بــالي وألبيرت سيشــهاي بعــد وفاته ســنة ١٩١٦ يُظهر أن هــذا العالمَ بنى نَظَريّتــه اللّسَــانيّة محصــورا في دراســة اللُّغَــة في ذاتِهــا ولذاتِهــا، مقيما هــذا الصرح اللّسَــانيّ على مجموعة من الثنائيات كاللُّغَة والكلام والدياكرونية والســانكرونية واللُّغَويّــات الداخليــة واللُّغَويّــات الخارجية والدَّال والمَدلول، ومعلوم أن سوسير قال باعتباطية العلاقةِ بين الدَّال والمَدلُول، وهي نفسها الثنائية الكبري التي كان مدار دَلائِل الإعجَازِ عليها تحــت مســمى اللَّفظ والمَعنَــى، أو ثنائيــة المحتوى والتعبير عند مدرسة كوبنهاغن مع رائدها اللّسَانيّ يالمسليف.

الدال والمَدلُول بين الجُرجَانيّ ودي سوسير

لقد تحدث «سوســير» في محاضراتــه عن الدَّال عــلى أنه التجلي المــادي للغة، وعن المَدلُــول على أنَّهُ التمثــل الذهني للمحتوى اللُّغَــويّ، يقول د. زكريا إبراهيم: «بيدَ أن هذه العلامات ـ في رأي سوســير ـ مزدوجــة، أو «ذات وجهين»: لأنَّ العلامة اللُّغَويّة لا

(٥) المصدَرُ نفسه، ص ٣٦.

تربط شـيئا باسـم ما، كما أن اللُّغَـة بعيدة عن أنْ تَكونَ مجـرد «تحويل» أو نقل «للواقع (من المجال العينـي إلى المجـال المجـرد)، وإنمـا العلامة عبارة عـن اتحـاد «صـورة صوتيـة» إلا وهي الـدَّال Le signifiant بـ»تمثـل ذهنـي» (أو «تصور) ـــ ألا وهـو «المَدلُـول «Signifié وعلى حـين أن «الدَّال» يندرج تحت النظام المادي (لأنَّهُ عبارةٌ عن أصواتٍ، أو إيماءات، أو حركات، أو صور محسوسـة..الخ)، نجد أن المَدلُول يندرج تحت «النظام الذهني» (لأنَّهُ يتجسدُ على مستوى المُحتوى أو المضمون كفكرة أو معنى، لا كشيءٍ أو مَوضوع)، ولّما كانت العلامة هي عبارة عن ذلك «الكل المتألّف من الدَّالِ والمَدلُول فإنَّ الدلالة هي مجـرد «علاقة» تتحقق من تآلف هذين العنصرين، ولهذا يُشبّه سوسير «اللُّغَة» بورقة ذات وجهـين: الوجهُ فيها هو الـدَّالّ والظهر هو المدلول ولا يمكـن تمزيقُ وجـه هذه الورقـة، دون تمزيقِ ظهرهـا ومن ثـم فإنَّه لا يمكن القضـاء على الدَّال، دون القضـاء على المَدلُـول (والعكس بالعكس)؛ أو على حد تعبير سوسير: «إن الفكر هو وجه الصفحة: recto، بينما الصوت هو ظهر الصفحة: verso، ولا يمكن قطع الوجه دون أن يتم في نفس الوقت نفسه قطع الظهـر»[٦]، وأوضحَ سوسـير أنّ العلاقةَ بين الـدَّال والمَدلُول اعتباطية فكلمة فَرَس مثلا لا تحمل أي دلالـة على ذلك الحيوان الأليـف ودليلُ ذلك هو أن الكلمة في الفرنسية CHEVALE وفي الإنجليزية HORSE فالأصـوات المشـكلة للألفـاظ لا تحمـل دلالة تطابق الشيء، وهذهِ مسـألةٌ أفلاطونية تتعلقُ بسبب تسمية الأشياء لم يكن سوسير يريدُ الخوض فيها، هي نفسُها القضية التي أعلن عنها الجُرجَانيّ لما عرضَ حديثَه عن مسـألةِ نظم الحروف، مقارنا إياها بالكَلِم المنظومة حيث لا يحتاج نظم اللَّفظ إلى اقتفـاء دلالي في ذهن المتكلم، بحيـث لو قال واضع اللُّغَة: رَبَضَ، مكان ضَرَبَ لما أخطأ، يقول سوسير: «وهكـذا فإنَّ معنى لفظ الأخت ليـس مرتبطا بأية علاقة قـد تتخيلها موجودة داخل سلسـلة أصوات لفـظ الأخـتS. R .O E U، أوهـي أصوات اتخذت وسـيلة كصـوت دالٍّ لأنَّـهُ يمكن لهـذه العلاقة أن تصور بأية سلسـلة أخرى من الأصوات تكون دالة وكبرهان على ذلك أن الخصائص المتباينة للألسـنة تكون متضاربـة فيما بينها وبالأولى وجود ألسـنة مختلفة»[٧]، وقد فصل سوسير في مرجع الاعتباطيّة لقيامِها على المُواضعـة والاتّفاق بين أفراد الجماعة اللُّغَويّـة وقدرتهـا عـلى منـح اللُّغَة ثباتَهـا بحكم صلتهـا بالفـرد غير أنَّهـا تتمتعُ بالتغـير من حيث الانتماء للجماعة كمـا تجعلُ الاعتباطية عنده اللُّغَة موسـومة بطابعها التواصلي والتعبـيري من حيثُ صبغتُهـا السـيميائيّة ولذلـك كانتْ مشـكلة اللُّغَة عند سوسـير في حقيقة أمرها مشكلة سيميولوجية، ومـن هنا فالاعتباطيـة تجعل من العلامة وسـيطا بـين الفكر والصـوت، ورغم كُلّ هذا فإنَّ سوسـير وجدَ نفسَـه في مأزق، حينمـا رأى أن الاعتباطية لا تمسّ جميع الوحدات حيث يمكن أن تظهر العلاقة السـببية بين الدَّال والمَدلُـول في بعضها، وقد ذهب إميل بنفنيست إلى رفض الاعتباطية كُليّة معتبرا أن العلاقة بين الـدَّال والمَدلُول علاقة ضرورية، ويذكر أن الاعتبـاط واقع في العلامة بجزءَيها وما ترمز له، يقـول بنفنيسـت (١٩٠٢ـ ١٩٧٦م): «إن العلاقة

(٦) زكريا إبراهيم، مشـكلة البنيـة أو أضواء على البنيوية، دار مصر للطباعة، د.ت، ص. ص ٤٨ - ٤٩.

(٧) فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمـة عبـد القـادر قنينـي ومراجعة أحمـد حبيبي، إفريقيا الشرق،١٩٨٧ ص٨٨.

بـين الـدَّال والمَدلُول ليسـت اعتباطية بـل هي على العكس من ذلك، علاقة ضرورية فكلاهما نُقشـا في ذهني وكلاهما يسـتحضران الآخر في كُلّ الظروف، ثمة اتحاد إلى درجة أن المفهوم ثور هو بمثابة روح الصورة الصوتية (ث.و.ر)»[٨].

فكل الوحدات اللّسَانيّة إنَّمَا وضعت للتعبير عن دلالة تتوافق معها بمجرد اسـتحضارها في الذهن، فقولك قلم يجعلك تستحضر الشيء الذي يكتب به، وقولك مصباح يوافق الشيء الذي نستعمله للإضاءة وهكـذا.. فلابد أن الوحدات تطابق المرجع في العالم الخارجي، بما تتوافق عليه الجماعة اللّسَـانيّة وإلا لاضطر كُلّ واحد منها إلى ابتداع ما شاء من أصوات وتأليفها لتشـكيل ما أعجبه من الوحدات اللّسَانيّة، وهذا أمر محال لا يستقيم.

ونجـد الجُرجَانيّ تجاوز قضيـة الاعتباطية إلى قضية التأويل في باب حديثه عن معنى المَعنَى، وهو يورد فَصلا كاملا عن الكنايةِ والتمثيل والاستعارة، مبرزا أنّ هذا اللون من الكلام يحتاج فيه المتكلم إلى فهم المقصـد الثاوي وراء الكلام،إذ لا يكفي وقوفك عند ظاهر اللَّفظ لأنَّهُ ليس المقصد المُرَاد وإنما مزية التعبيرتكـون بتأويـل معناه الظاهـر للوصول إلى المَعنَـى الخفي، مثل طويل النجـاد ونؤوم الضحى وجبـان الكلـب وغيرها للدلالـة على طـول القامة والعيش في نعيم والكرم، وهذه معان لا يوصل إليها إلا بفهم معنـى المَعنَى لأنها قائمة على الرمز لا على الكشـف، وهو عنده أثبت للكلام وأوقع من صريح اللَّفظ وآكـدُ له وأوثقُ بمعناه الـذي أريدَ له، يقول الإمـام في هذا الباب: «قد أجمـعَ الجميعُ أنّ الكناية أبلـغُ من الإفصاحِ والتعريضَ أوقـعُ من التصريحِ، وأنَّ للاسـتعارةِ مزيةً وفضلًا وأن المَجـازَ أبدًا ابلغُ مـن الحقيقـةِ إلا أنّ ذلـك وإن كان معلومـا عـلى الجملـة فإنَّهُ لا تطمئنُّ نفس العاقل في كُلّ ما يَطلب العلـم، حتى يبلغَ فيه غايتَه وحتى يغلغلَ الفكرَ إلى زواياه وحتـى لا يبقى عليه موضعُ شـبهة ومكان مسـألة..»[٩]، فالجُرجَانيّ يـبرز أن المزية والتفاوت في الـكلام ظاهـر في أبـواب الكناية والاسـتعارات والتمثيل، أكثر من الإتيان باللَّفظ الصريح والعبارة المألوفة المباشرة، وهذا النوع من التعبيرات الحاملة لهـذه المزيات، لـم يكن سوسـير مهتمًا بهـا بقدر مـا كان همُّـه منصرفـا إلى اللُّغَة المألوفة، مؤسّسـا لِسَـانيّاته عـلى اللُّغَـة في ذاتها ولذاتهـا الأمر الذي جعل المتكلم غائبا عن تفكيره، مثلما غيبتْ بنيويتُه علاقـة اللُّغَة بالفكر كما فعـل العقلانيون وتحديدا مع ديـكارت، وقد نبعَ هذا الطرح عنـد الجُرجَانيّ من تقسيمِه للكلام على ضَربَين؛ «أولهما يُوصَلُ منه إلى الغرض بدلالةِ اللَّفظ وحدِه وهو المَعنَى، وضرب لا يُوصـل منه إلى الغرضِ بدلالة اللَّفظ وحده ولكن أنْ تعقلَ مـن اللَّفظ مَعنًى ثم يُفضي بكَ هذا المَعنَى إلى مَعنـى آخـر»[١٠] وهو مـا اصطلح عليه باسـم معنـى المَعنَى وهو لا يكـونُ إلا في المجاز، يقول د. نـصر حامد أبو زيد: «إنَّ الجُرجَانيّ بهذا التقسـيم في قراءة معاصرة يدركُ مسـتوى آخـرَ من المَعنَى، يفارقُ مسـتوى المَعنَى الناتج عن تفاعل العلامات اللُّغَويّـة مـع مَعاني النحـو فيما يطلـقُ عليه عبد القاهر اسـم «النّظم»، إنّ المَعنَـى في المجاز يَخضع لمـا يخضع له المَعنَى في غير المجاز من قوانين النّظم ويزيد عليه شيء آخر، هو العلاقات الاسـتبدالية في

(٨) خليفـة بوجـادي، محـاضرات في علـم الدلالـة، بيـت الحكمة، الجزائر، ط١، سنة ٢٠٠٩، ص ٩٠.

(٩) عبـد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجـاز، قراءة وتعليق العلامة محمد محمود شاكر، مكتبة المدني، ص ١٦٣.

(١٠) دلائل الاعجاز ص ١٧٧

مقابلة العلاقات السياقية. إن مفهوم النّظم عند عبد القاهر يماثل العلاقات السياقية عند علماء اللُّغَة المعاصرين ومفهومه لـ «المَعنَى» و «ومعنى المَعنَى» يماثل مفهوم العلاقات الاستبدالية «[11].

إنّ المتكلم في التصور البَلاغيّ عند الإمام، كان ذا حضور بارز في استحضاره للفعل اللّسَانيّ باعتبار منطق التفاوت الذي كثيرا ما ألحّ عليه الإمام وشكّل جوهرا أساسا في تناوله لقضية النّظم، دون أن نَنسى أنّ الفكر المعتزليّ ونسقه الجدلي عاملٌ أسهمَ إيجابا في اعتبار المتكلم نقطة الضوء الأولى، التي يبدأ منها الخطاب في تشكله البنيوي وإليها ينتهي، لأنَّ ما كان يهمّ الجُرجَانيّ كما أسلفنا هو إثبات إعجاز القرآن في سياق ثقافيّ وكَلاميّ مشحون ومحتدم، كان لابدَّ فيه من إعطاءِ الأولويّة للمتكلم من أجل إظهارِ تفاوتات الأنساق التعبيرية والكشف عن ميكانيزمات تكوينِها الداخلي، وذلك لم يكن سيتأتّى للإمام لولا هذا الزخم اللّسَانيّ الكبير الذي سبحَ في بحره على امتداد الكتاب، وهو يقلبُ في اللُّغَة وأنساقها نحوا وبلاغة ويُقيم حِجَاجه المنطقيّ والكَلاميّ ويستحضرُ الموروث الشعريّ والنَّصّ القرآنيّ وغيرهما من أجل بيان دور المتكلم وقيمته في صلب الكلام الذي ينتج، ولعلّ هذا ما جعل الأمثلة في دَلائِل الإعجَازِ تعملُ على تقريب الصورة من ذهن المُتلقي،عبر تمثيلات ماتعة تستحضر أهلَ الصناعة كالنساج والصائغ للذهب، مما يدلّ قطعا على أن الجُرجَانيّ كان واعيا تمام الوعي بقيمة المتكلم مُنتجًا للخطاب، خلافًا لما فعله سوسير الذي جعله على الهامش مُركّزًا على اللُّغَة نفسها دون أن يفارقَها إلى مُنتجِها، فكان أبعدَ ما يكونُ عن مقاربةِ اللُّغَة في بُعدها التواصليّ بقدر ما ظل ملتصقا بعقدة البنية والنسق.

(١١) ناصر حامد أبو زيد إشكاليات القراءة وآليات التأويل المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط ٢٠٠٨٨ ص ١٨١

البنية بين الجُرجَانيّ ودي سوسير

لقد تكلم سوسير عن النسق والنظام قاصدا بهما البنية دون أن يستعملَ هذا المُصطَلح في محاضراته، إذ رأى أنّ اللُّغَة هي نظامٌ من القواعد التي تتآلف فيما بينها، لتشكل هذا النسق اللُّغَويّ المعروفَ ولذلك وجدناهُ يشبهها بلعبة الشطرنج، حيث إن تبديل عناصر اللعبة بأخرى مشكلة من مادة أخرى لن يفسد النظام،غير أن زيادة قطعة أو إنقاصها سيؤدي لا محالة إلى تغير النظام، وهذا الأمر نبه إليه الجُرجَانيّ في معرض حديثه عن التأكيد والحذف في اللُّغَة حيث إن زيادتك لمُؤكِّدٍ في موضع لا يحتاج الزيادة مفسدٌ للبلاغة، كما في قولك عن رجل كثير الخروج وقت الغداة «هو قد خرج» بدلا من قولك: «خرج» لأنَّهُ معتاد في عرف الناس على الخروج في ذلك الوقت فلا تحتاج إلى مؤكد في هذا المقام وفي باب الحذف الذي قال عنه الجُرجَانيّ: «هو بابٌ دقيقُ المَسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنّكَ ترى به تركَ الذّكرِ أفصحَ من الذكرِ والصمتَ عن الإفادةِ أزيدَ للإفادةِ وتجدكَ أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطقْ وأتمَّ ما تكونُ بيانا إذا لم تُبنْ»[12]، بل نجدُ الإمامَ عبد القاهر لا يكاد يَستغني في باب من أبواب الكتاب عن كلمات كالنسقِ والنظام والبناء والنسج والحبك والتحبير والتفويف،لأجلِ الدلالة على طبيعة اللُّغَة التي يَحكمُها النّظم القائم على العلاقاتِ بين الألفاظ، إذ لا يكتسبُ اللَّفظ الواحدُ

(١٢) دلائل الإعجاز ص ٧٠

قيمتــه إلا بتعالقِهِ مع أخيه، وهو أمــرٌ كثيرا ما نَبَّه إليه الجُرجَانيّ في معــرضِ ردِّه على حُجج المعتزلة مــن أن المزيةَ للفظ لا لغيره، فيذكــرُ الجُرجَانيّ أن المتكلــم حين يفاضلُ بين اللَّفــظ واللفظ، إنَّما يفعل ذلــك وهو يقصدُ موقعَه مــن الكلام وإلا فهل يعقل أن يفاضل بين اللَّفظ واللفظ، كأنْ تُفاضلَ بين رجلٍ وفرسٍ وامرأة، بل هل يُعقل أنْ تَكونَ المفاضلة بين نفس الكلمة ومُرَادِفها، مثل الأســدِ والليثِ أو تكونَ المفاضلة بــين كلمةِ رجلٍ في لغة العرب، فتقول هي أفضل مــن كلمة رجــل في الفرنســية والانجليزية، ومن ثــمَّ فالنظــامُ اللُّغَويّ قائم عــلى العلاقات بين الوحــدات المعجمية وعلى توليفة الوحدات نفســها، يقول سوسير: «إن ضروب العلاقات وأنواع الفروق المميزة بين الحدود والألفاظ اللّسَانيّة تقع في مجالين متمايزيــن حيث يكــون كُلّ واحد من تلك الضروب والأنــواع، مولدا ومحدثا لأنمــاط معينة من القيم.. فمن ناحية أولى نجد في كُلّ قول استدلالي أنَّ الألفاظ تعقدُ فيما بينها حســب ترتيبها في سلسلة، ضروبا مــن العلاقات المبنية على الخاصية الخطية الطولية للســان، وهي خاصية تســتبعد وتنفي كُلّ إمكانية للتلفظ بعنصرينِ اثنين معًا وفي الوقت نفسهِ، وهذه العناصر تترتب واحدة تلو الأخرى في سلسلة الكلام وتلك صياغة بنيوية..»[١٣]، وهذا الطرح كما اعترفَ سوســير يعد بنيويا في صميمه، كان الجُرجَانيّ قد أرسى معالمه الأولى في خضمِّ دفاعِه عن قضيّة النّظم، وإنْ كان سوسير على امتدادِ محاضراته لم يَستعمل على الإطلاق مُصطَلح البنية بقدر ما كان يَســتعمل مُصطَلحَي النسق والنظام كثيرا، وقد فطنَ سوسير إلى قيام البنية عــلى وجود عناصر تدخل في علاقات بحيث يؤدّي سقوط عنصر واحد إلى خلخلةِ النظام، وتأسُّســها عــلى المفاهيم التــي سيشــير إليها جان بياجيــه (١٨٩٦ـ١٩٨٠م) وهي الكليــة والتنظيم الذاتي والتحول، يقول: «البنية نســقٌ من التحوّلات لــه قوانينُــه الخاصــة باعتبــاره نســقا (في مقابل الخصائــص المميــزة للعناصر)، علما إنَّ من شــأن هذا النسق أن يظلّ قائما ويزدادَ ثراءً بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفســها، دون أنْ يَكونَ من شــأن هذه التحولات أن تخــرج عن حدود ذلك النسق أو أن تُهيب بأية عناصر أخرى تكون خارجة عنه، وقصارى القــول إنَّهُ لابدّ لكل بنية إذن من أن تتســم بالخصائص الثلاث الآتية: الكُليّة والتحوّلات والتنظيم الذاتي»[١٤].

إن هــذه المفاهيــم كانــت حــاضرة في ذهــن الجُرجَانــيّ، فالكليّة بما هــي عناصر داخلية تؤلف المجمــوع المشــكل للنســق يَجعــل كُلّ عنــصرٍ غير ذي معنــى في اســتقلالِه عــن بقيــة العنــاصر، فلا معنــى لوجود اللَّفظ في معــزل عن مجاوريه، ولعل الجُرجَانيّ قد مَثَّلَ لهذا المفهوم بقوله تعالى: {وقيل يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا ســماءُ أقلعي وغِيضَ الماءُ وقضيَ الأمرُ واستوتْ على الجُوديّ وقيلَ بُعدًا للقوم الظالمين} ســورة هود/ ٤٤، قــال الجُرجَانيّ: «وهل تشكُّ إذا فكرتَ في قوله تعالى {وقيل يا أرض ابلعي مــاءَك} (الآيــة)، فتجلّى لــكَ منها الإعجــازُ وبهرَك الذي ترى وتســمع أنكَ لم تجد ما وجدتَ من المزية الظاهــرة والفضيلــة القاهــرة إلا لأمــرٍ يرجــعُ إلى ارتباطِ هذه الكلم بعضِهــا ببعض، وأن لم يَعرض لهــا الحُســن والــشرف إلا مــن حيثُ لاقــت الأولى بالثانيــة والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تســتقريَها إلى آخرها، وأن الفضــلَ تناتج ما بينها وحصل من

(١٣) محاضرات في علم اللسان العام، ص١٣٤.

(١٤) الدكتور زكريا إبراهيم، مشــكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، د.ت، ص ٣٠.

مجموعها؟»[١٥].

أما التحـول فهو أمر يسـمُ البنية إذ يسـتحيلُ الحكم بالثبـاتِ على البنية، ولعل حلم البنيوية كان الوصول إلى بنيات ثابتة شـبيهة بالبنيات المنطقية الرياضيـة، فالبنية تتحول باسـتمرار وتحولها ذو طبيعة ذاتيـة، فالفونيمات تعطينـا كلمات وجمل لا نهائيـة رغم محدوديتها، وهو ما عبر عنه أندريه مارتينه (١٩٠٨ـــ ١٩٩٩) بالاقتصاد وتشومسكي بالإبداع اللُّغَويّ، كمـا أن توليد العبارات من بنيات نحوية عبر الزيادات والحذف والتقديم والتأخير أمر من خصيصة العَرَبيّة، كثيرا ما استوقفت الجُرجَانيّ ليدلّ بها عـلى أن المتكلم إنَّمَا يأتي بالألفاظ موافقة للمعاني التي تجيش في نفسه باعتبارها خدمًا لها، وهو أمر كان الجُرجَانيّ على وعي به غير أن الشغل الشاغل له كان قضية النّظم في ذاتها لإثبات الإعجاز القرآني، فلم يكن له ليخوض في مثل هذه الجزئيات التـي كانت تتبـدى له في فكره غـيرَ ذات جدوى في دعـم نَظَريّتـه، مـادام أنَّهـا ميكانيزمـات تتخفى في البنيـة العميقـة للنَظَريّة، فلم يكـنْ في حاجة إلى الخوض فيها جزءا جزءا حتى لا يتيهَ بالمتلقي وهو الذي عني بـه كُلّ الاعتناء، وظل فكـره مربوطا به على امتداد الطروحـات والقضايا في دَلائِل الإعجَازِ، أمـا التنظيم الذاتي فهو نوع من الانغلاق لأنَّ البنية يحكمهـا قانـون داخلي يسـير البنية، وهـو قانون النحو الـذي تتحدد فيه العلائق بـين الألفاظ التي تجعلها ذات فائدة.

وفي هذا السياق يذكر الجُرجَانيّ أنّ الألفاظ تكون غير ذات فائدة، إلا إذا ترتبت في بنية محكمة توافق المعانـي المرتبة في النفس، وهو أمر كان قد نبّه إليه في أسرار البلاغة قبل دَلائِل الإعجَازِ لما قال: «الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويُعمَدُ بهـا إلى وجهٍ من التركيب والترتيـب فلو أنَّك عمدتَ عـلى بيت شـعر أو فصل نثـر فعـددتَ كلماتِه عَدًّا كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفـرغ المَعنَى وأجري وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفادَ كما أفادَ وبنسقه المخصوص أبانَ المُـرَاد تقول في «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»: «منـزل، قفا، ذكرى، من، نبك، حبيب» أخرجته من كمال البيان إلى مُحال الهَذَيان نعم وأسقطت نسبته إلى صاحبه»[١٦]، ولعلَّ هذا الطرح ذا البعد اللّسَانيّ هـو ما تلقفتهُ التوليديّة التحويلية مع تشومسـكي في نمـوذج ١٩٥٧ في مظاهـر النَظَريّـة التركيبيـة Aspects de la théorie syntaxique وهـو يشرح مفهومـي النحويـة La grammaticalité واللانحوية Agrammaticalité في المثال الشـهير (الأفكار الخضراء تنام حانقة في حضن قوس قزح) مبرزا أن بعثرة الوحـدات المعجمية في هذا التركيب سيؤدي إلى لا نحوية الجملة وغياب الدلالة.

ولابـد أنَّ تَحقُّـقَ الدلالـة إنَّمَا يَنتـجُ عن وجود العلائـق التي عدها الإمام وجوها ضرورية في نظام التركيـب العَرَبـيّ عـادًّا إياهـا خيوطًـا ناظمة بين الألفـاظ التي بهـا يتحقق قوام التركيب السـليم في لغة العرب وهي تعلُّق الاسـمِ بالاسـم وتعلُّق الاسم بالفعـل وتعلُّق الحـرف بهما وقد بـيَّن الجُرجَانيّ مواضعَ هذا التعلق في مناحٍ متعددة ليثبتَ أنّ النّظم إنَّمَـا يكونُ من تعالق هذه الوحـدات المورفولوجية بعضها مع بعض ليتحقق البناء الذي يشـبه تماما

(١٥) دلائل الإعجاز، ص ٤٣.

(١٦) عبـد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمـود محمد شـاكر، مطبعـة المدني، القاهـرة- دار المدني، جدة، د. ت، ص. ص ٢-٣.

مـا يصنعه البَناء من وضـع اللبنة فوق اللبنة حتى يكتمـل البِنـاءُ بـتراصٍّ بعضها مع بعـض، يقولُ الجُرجَانـيّ: «وكنا قـد علمنا أن ليس النّظم شـيئا غير توخّي معاني النحـو وأحكامه فيما بين الكلم، وأنّا لو بقينـا الدهرَ نجهدُ أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكا ينظمُها وجامعا يجمع شملها ويؤلفها ويجعـل بعضهـا بسـبب مـن بعض، غـير توخي معانـي النحو وأحكامـه فيها طلبنا مـا كُلّ محالٍ دونه،..ذلك لأنَّهُ إذا كان لا يكون «النّظم» شيئا غير توخّي معانـي النحو وأحكامه فيما بين الكلم، كان من أعجـبِ العَجب أن يزعمَ زاعـمٌ أنَّهُ يطلبُ المزية في «النّظـم»، ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي «النّظم» عبارة عن توخيها فيما بين الكلم»[١٧] وهـذا التعلق لا يكـون حقيقة بـين اللفظين عنده، بـل مَكمن حقيقته في المَعنَـى، يقول الإمام: «ويعلم كذلـك ضرورة أنّ التعلق يكون فيما بين معانيها،لا فيمـا بين أنفسـها ألا ترى أنَّا لـو جَهِدنا كُلَّ الجهد أن نتصـورَ تعلقا فيما بين لفظين لا معنى تحتهما، لم نتصور؟[١٨]، وهذا نفسه الطرح السوسيريّ للغة التي قالَ عنهـا «اللُّغَة منظومـة لا قيمة لمكوناتها؛ أي لعلاقاتهـا القائمة فيما بينهـا وبالتالي لا يمكن للألسنيّ اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة، بل إن لزامًـا عليه وصفُ العلاقات التي تربط بين هذه المفردات «[١٩]، وإن كان الجُرجَانيّ قد قدم تصوره للغة بشـكل أكثر دقة وشـمولية في تعريفه للنظم، الـذي اختصرَ وجمـعَ في الآن نفسِـه ماهيّـة اللُّغَة في العـرفِ اللّسَـانيّ، مما يدلُّ على السـبق العلمي للـدرس البَلاغـيّ العَرَبيّ القديم في وضع الأسـس النَظَريّة للفكر اللّسَانيّ، وهو أمرٌ تنبَّه إليه دارسون معاصرون، يقول د. ميشيل أريفيه: «وهنا لا ينبغي القـول، كما يفعل ذلك بعضهم دفعـا بالصدر، إن سوسير هو مؤسس اللّسَـانيّات، أنَّها موجودة قبله بزمـن طويل في عـدد مـن الثقافـات، وفي الثقافة العَرَبيّة على وجه الخصوص، لكن سوسـير وجَّهها مسالكَ لم يسبق لها أن سلكتها»[٢٠].

لقـد أرسى الجُرجَانـيّ مفهوما عميقـا في البنية التركيبية،هـو مفهوم العلائق التي تشـكل شـبكة يحصـل فيهـا التجاور المـؤدي إلى نحويـة الجملة ومقبوليتها، سواء حملت على الحقيقة أو حملت على التخييل لذا سـيعمل تشومسـكي في مرحلة لاحقة من نموذج ١٩٥٧ على ملء المكون الدلالي الذي ظل شـاغرا لأنَّ مـا كان يهمه هو التمثيـل للبنيات عبر التفريـع المقولي للدفاع عن الكلية في النحو مخضعا تصـوره للبعد المنطقـي الرياضي الـذي أفرز تلك التمثيلات الشـجرية المعروفة التـي كانت تقبل أي جملة تحت الرؤوس سواء كانت نحوية، مثل شرب الولـد ماء أو شرب الولد الحائـط، ليتدارك الأمر في النمـوذج المعيار ١٩٦٥ ثم في مقال حول التأسـيم سنة ١٩٦٨ في إطار ما سُمّي بالفرضية المعجمية.

السياق بين ياكوبسون وفيرث والجُرجَانيّ

بَيَّنَ الجُرجَانيّ أنّ المتكلم لابد أن يحسن اختيار اللَّفظ الموائم للمعنى المُرَاد الواقع في النفس، فيكون هذا المعيار أساسـا لتحقيق البلاغة وتفاضل القول الذي يجعـل المبدعين يتفاضلـون بينهم، وهذا أمر

(١٧) دلائل الاعجاز، ص.ص ٣٩٢ـ٣٩٣.
(١٨) المصدَرُ نفسه، ص ٤٦٦.
(١٩) فردناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، دار النعمان للثقافة، لبنان، د.ط، ١٩٨٤، ص ٤.
(٢٠) أريفيـه ميشـال، البحث عـن فردناند دي سوسـير، ترجمـة وتعليق محمـد البقاعي، دار الكتـاب الجديدة المتحدة، ط ١، ٢٠٠٩، المقدمة.

أشـار إليه الجُرجَانيّ في مناسبات عدة، وهو نفسه ما ذهبَ إليه رائد مدرسـة براغ رومان ياكوبسـون (١٨٩٦ـ ١٩٨٢)، الـذي أبـرزَ أن الأسـلوبَ نتـاجٌ لتطابـق عمود الاختيـار على عمـود التوزيع، خلقا للتلاؤم بـين العلاقـات الركنية والاسـتبدالية التي تسمح بتوليد التركيبات، وهذا أمر سبقت إليه البلاغة العَرَبيّـة مـع الإمام الأكـبر عبد القاهـر الجُرجَانيّ وعيـا منه بـدور المقام والسـياق في فرض نوع من الاستعمال اللُّغَويّ، ليرسي بذلك واحدة من المفاهيم اللّسَـانيّة الكبرى التي تناولها اللُّغَـويّ البريطاني «جـون روبـرت فـيرث» (١٨٩٠ـ ١٩٦٠م) بوعي لِسَـانيّ عميق، معتبرا أن المَعنَى لا يمكنُ كشـفه إلا بتنسـيقِ الوحـدة اللُّغَويّة أي وضعها في سـياقاتٍ متباينـة عبر إدخالِها في أنسـاقٍ تركيبيـة متعددة، فالسـياقاتُ تتعـددُ وتختلـف بـين لغويـة يجعل اللفظة تختلف من حيث الاستعمال الذي يستدعيه مقام ما وسـياق الثقافة يتدخل ليمنح اللَّفظ معناه المختلف، وسـياق الموقف يجعل الاستعمال مختلفا مـن تركيب إلى آخر، وهو ما ذهـب إليه الجُرجَانيّ في وضـع اللَّفظ مع أخيه ليحصل المَعنَى المُرَاد، وقد أوضح ذلـك في باب فروق الخبر عنـد تفريقه مثلًا بـين قولك زيدٌ منطلق والمنطلـق زيد وزيد المنطلق وغيرها من التراكيب التي يسـتدعيها السـياق، وفي باب الفروق بين الحال بما يقتضيه النحو من حال مفـردة وأخرى جملة فعلية واسـمية وشـبه جملة تسـتدعيها بلاغـة القول التـي يفرضها السـياق، تحقيقا للبعد الوظيفي الذي ينشده المتكلم وهو ما عـبَّر عنه الجُرجَانيّ كثـيرًا في كتابِه بغرض المتكلم، ملمحا إلى ما سـماه ياكوبسون بالوظيفة التعبيرية في معـرض حديثه عن وظائف اللُّغَـة، فالجُرجَانيّ في «دَلائِل الإعجَازِ»، وهـو يحاول بكل اتزان فكري أن يثبـتَ صحّـة نَظَريّة النّظم نثـرَ كلامه في أبواب متفرقة نسـتطيعُ أن نفهم منهـا مدى حرصه على قيمة الهيكل اللُّغَويّ الذي يحدد وظيفته التعبيرية، فتقديم الضمير على الفعل في قوله تعالى: {قالوا أأنت فعلـت هذا بآلهتنا يا إبراهيم} سـورة الأنبياء/٦٢، هي غير قوله أفعلت أنت هذا بآلهتنا، فتقديم الضمير الواقع في الابتداء غـير تقديم الخبر جملة فعلية لأنَّ الخطـاب في الآيـة تعبير بَلاغيّ قـوي عن حال قوم إبراهيم، لّما وجدوا أصنامَهـم مُهدمة وقد علموا أن إبراهيم عليه السلام هو من فعل ذلك فحمل كلامهم على التقرير، وهذا من طريف القول في فنون الكلام العَرَبيّ يعـرف عندهم بتجاهل العارف، ويسـوق الجُرجَانيّ أمثلة كثيرة من هذا الصنف ليدل على أن صورة الـكلام تتحكم في الوظيفة التعبيرية وهو ما عبر عنه سوسير؛ من أن الجمل تلعب دورا في خدمة نظام الكلام بحسـب البعد الوظيفي للنسـق الذي يحكمها. لقد كان للسياق في دَلائِل الإعجَازِ قيمة عليا مادام أنَّهُ بؤرة اشـتغال نَظَريّة النّظم عنده، ولهذا لم يألُ الإمام جهدا في كشـف خصوصيات السـياق ودوره في تحقيـق البلاغة والإعجـاز القرآني، يقول الدكتور تمّام حسّـان: «لقد كانـت مبادرة العلامة عبد القاهر الجُرجَانيّ رحمه الله بدراسة النّظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التـي بذلتها الثقافة العَرَبيّة قيمة في سـبيل إيضاح المَعنَـى الوظيفي في السـياق والتركيب»[٢١]، بل لقد وجدنا الإمـام ينتقلُ بالـكلام العَرَبيّ إلى مسـتوى المجـاز والاسـتعارة والكناية والتمثيـل التي عدَّها وسائل يتحقق بها النّظم وبها يكون، فلم يقف حدُّ السـياق عنده على وضع الألفاظ وتعالقها محمولة على سبيل الحقيقة، بل تجاوز به الحديث بما يخدم

(٢١) تمام حسان، المرجع نَفسُه،، ص ص ١٨ـ ١٩.

نَظَريّته إلى مستوى الانزياح اللُّغَويّ، فبيَّن الشيخ أن الاستعارة والكناية وغيرها لا تتحقق إلا في التأليف مع غيرها، فلا يعقل أنْ تَكونَ كلمة الأسد الدَّالة على السبع استعارة مالم تدخل في تركيب، يقول الجُرجَانيّ: «إن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النّظم وعنه يحدث وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخَّ فيما بينها من أحكام النحو، فلا يتصور أنْ يَكونَ ها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أنْ يَكونَ قد أُلّف مع غيره»(٢٢).

الجُرجَانيّ ولسانيات النص

تعد اللّسَانيّات النصية مشروعا علميا تخطى حدود لِسَانيّات الجملة ليجعل من النَّصّ بؤرة الاشتغال اللّسَانيّ في بعده التواصلي وتماسكه البنيوي، إذ هي دراسة تبتدئ من النَّصّ وتنتهي عنده فكل شغلها ومدارها هو النَّصّ في ذاته ولذاته، فلسانيات النَّصّ تعتمد منهجا وصفيا تحليليا للأنساق، فتقف عند مفاهيم الاتساق والتماسك النصّي والربط بين الأجزاء وفقا لعدد من العلاقات النحوية كالتبعية والموصولية، ولعل هذه المفاهيم التي شكلت عمدة اللّسَانيّات النصية لم تكن غائبة في الفكر اللّسَانيّ التُّرَاثي ودَلائِل الإعجَازِ، وهو يرسي دعائم نَظَريّة النّظم التي كان عليها المدار والجوهر، يكون قد أرسى لمفهوم كبير هو النصية La téxtualité، وإن كان الجُرجَانيّ قد وقف عند حدود الجُملة غير أنَّها باعتبارها الوحدة الدنيا تشكل معمار الخطاب/ النَّصّ فإنه قد بثّ الأسس الأولى أثناء معالجته للبنى التركيبية من حيث التشكل النحوي عبر العلاقات المقبولة، التي تنتج الدلالة بتَحقُّق نحوية الجملة التي تؤسس لنحوية النَّصّ ومقبوليته، فقد حظي الربط عند الجُرجَانيّ بقيمة كبيرة حتى أنَّهُ خصص فصولا للفَصلِ والوَصل، أبان فيها دورَ الروابط في تحقيق بلاغة الكلام ومقصديّة المتكلم بل إنَّ الحذف عند الجُرجَانيّ قد يكونُ أبلغَ من عدم الحذف، وجعلَ له موضعًا خاصا وبين فيه مذهبا ماتعا فعَدَّهُ بابا دقيق المسلك، لطيفَ المأخذ عجيب الأمر شبيها بالسحر يكونُ الإتيان به أحيانا أنطقَ للكلام وأبلغَ من الإتيان بالكلام حشوا زائدا، فمثل هذه الميكانيزمات اللُّغَويّة تشكل أسسا للسانياتِ النَّصّ الحديثة التي ارتكزت على مفاهيم عدّة، لا تختلف البتة عما أرساه الجُرجَانيّ كالمقصديّة والمقبوليّة والحذف والسياق.

ومعلوم أن لِسَانيّات النَّصّ ولدت من رحم البنيوية الوصفية حينما تناول اللُّغَويّ الأمريكي «هاريس» الخطاب، بؤرةً لاشتغال الدرس اللّسَانيّ عبر منهج تحليلي توزيعي، لم يغفلْ البُعدَ السياقي والتواصلي للخطاب، فاستطاع بذلك أن يتجاوز حدود الممارسة اللّسَانيّة الشائعة التي لم تتخطَّ نحو الجملة وبقيت محصورة داخل سياجها المقولي، لذلك عُدَّ هاريس في الدراسات اللّسَانيّة الحديثة المُنظّر الأول للسانياتِ النَّصّ لأنَّهُ أخرج الخطاب من دائرتِه الضيقة ومنحه امتدادَه في النَّصّ وخارجَه يقول هاريس: يمكن أن نتصور تحليلَ الخطاب انطلاقا من ضربين من المسائل، هما في الحقيقة أمران مرتبطان: أما الأول فيتمثل في مواصلة الدراسة اللّسَانيّة الوصفيّة بتجاوز حدود الجُملة الواحدة في نفس الوقت، وأما الثاني فيتعلق

(٢٢) دلائل الإعجاز، ص ٣٩٣.

بـين الثقافـة واللُّغَـة»[٢٣]، هذا الطـرح الذي قدمه هاريـس يحمل وعيا بقيمة النَّصّ في كليته باعتباره وحدة دلاليـة تتحقق عـن طريق تراصّ واتسـاقِ الجُمل وبأهمية السياق في تشكيل الخطاب، الذي لا ينفصلُ عن الموقف المنتج له داخل مقام تواصليّ ما من أجل فهم الأبعـاد التداولية، عبر إدراك الروابط المحققة للاتسـاق والانسـجام النـصي، مما يجعل النَّصّ وحدة كلية مؤسسـة مـن مجموعة العلاقات التـي تتلاحم لتشـكيلِ هـذا الكلّ المـؤدّي لمعنى أو معـانٍ عدة يقـول د. صبحي إبراهيـم الفقي: «إنّ مهـام لِسَـانيّات النَّـصّ تتجلى في إحصـاءِ الأدواتِ والروابـط التـي تسـهم في التحليـل؛ ويتحقق هذا الأخير بإبراز دور تلك الروابط في تحقيق الاتّسـاق النـصّي مع الاهتمـام بالسـياق وأنظمـة التواصل المختلفة»[٢٤]، ومن هنا يظهر أن اشـتغالَ لِسَانيّات النَّـصّ هو اشـتغالٌ بنيوي وصفـي وتحليلي هدفه الوصول إلى دلالة النَّصّ ومعرفة الأغراض التداولية للخطاب التي تتعـدد باختلاف المواقف السـياقية المنتجة، ولعل هذا الأمر هو ما نبه إليه «فان ديك» في كتابه «نَحو النّصّ» الصادر سـنة ١٩٧٢ وفي كتابه «النَّصّ والسياق» الصادر سنة ١٩٧٧ عندما بين أن التعامل مع النَّصّ ينبغي أنْ ينطلق من رؤية الأدبِ واللُّغَة معا ولعله كان يسـتدعي الطرح الشـكلاني الروسي الذي تعاملَ مع النَّصّ في استكشافِ أدبيته من الداخل في بداياتِ الأمـر ليتوجّه بتحليلِه للنصّ نحو السـياق والثقافة، يقول فـان ديك «إن النَّصّ لايمكـن أن يحدّد فقط على مسـتوى واحد، بل من الـضروري أن يحلل بمسـتويات عديـدة، تركيبية ودلاليـة وتداوليـة»[٢٥]، وذلـك راجـع إلى الطبيعة الكلية للنص التي يحكمها الترابط بين الأجزاء فهو كُلّ متحـدٌ تحكمُه أنسـاق نحوية تأتلـف وتنتظم لتشـكل المباني التي تتمتع بالمقبوليـة، تخلق ذلك الاتسـاق Cohésion الـذي يتحقـق بميكانيزمات نحوية كالحذفِ والإحالة والربط والتكرار، وهو ما اصطلحت عليه البلاغـة العَرَبيّة القديمة بمُصطَلح السَّـبك، لـذا فالنَّصّ ترابطٌ مسـتمر للاسـتبدالات السـنتيجمية التي تظهر الترابط النحوي في النّصّ، كما قال «هارفج»[٢٦]؛ ويبـدو أن مفاهيم من قَبيل الاتسـاق والانسـجام والقبول والموقف والتماسـك والربـط والحبك لم تغبْ عن الفكـر اللُّغَويّ للإمام عبد القاهر الجُرجَانيّ في دَلائِل الإعجَازِ الذي يحسب له تجاوزُه حـدود التنظير للجملة العَرَبيّة، وإن بدا في ظاهر الأمـر ذلك لأنَّ المنهجَ العلمـيّ في الحِجَاج حتّـم عليه التقاط الجمـلَ وضربَ المثال،غير أنَّهُ لم يغفل النَّصّ في كليته نحوًا وبلاغة ومنطقًا ومعجمًا وفصاحَة في القول وغيرها، وقد جمع هذه المعطيات جميعهـا في تأليف بديع ماتع عبر الفصول من أجل الوصول إلى غايته وهي إثبات إعجاز النَّصّ القرآني في كليته، لا في تراكيبه الجملية فحسـب فمَثّلَ الإمام لذلك بمـا يصنعه الصائغ بأخذ قطع من الذهب أو الفضـة وصهرها في بعضها حتـى تغدو كالقطعة

(٢٣) محمد الشـاوش، أصول تحليـل الخطاب والنظرية النحوية العربية.. تأسـيس نحو النص، مج١، ص.ص ٣٨ ــ ٣٩.

(٢٤) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسـة تطبيقية على السـور المكية، ج١، دار قبـاء للطباعـة والنـشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سـنة ٢٠٠٠، ص ٥٦.

(٢٥) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، سنة ٢٠٠١، ص ١٦.

(٢٦) سـعيد حسـن البحـيري، علـم لغة النـص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصريـة العالمية للنشر لونجمان، ط١، سنة ١٩٩٦، ص١٠٦.

الواحـدة، إن طرحا كهـذا لم يكن غائبـا عن وعي الجُرجَانيّ مثلما لم يكن غائبا عمّن قبله، فالجاحظ كان قد ذكر أن أجودَ الشِّـعر ما كان شـديد اللُّحمة بين أجزائه، فتماثلت ألفاظُه مع بعضها فلا يحصل بينهـا شيءٌ من التنافر حتى تكونَ حسـنة التأليف والنسـج، قال الجاحـظ (١٥٩ـ٢٥٥هـ): «أخبرنا الفسوي قال: حدثني يموت بن المزرَّع قال: سمعت الجاحـظ يقـول: أجـود الشِّـعر ما رأيتـه متلاحم الأجزاء، سـهل المخارج، كأنه قد سُبكَ سبكا واحدا، فهو يجري على اللسـان كما يَجـري فرس الرهان، وحتى تراها متفقة ملسـا، ولينة المعاطف سـهلة، فإذا رأيتها متخلعة متباينة، ومتنافرة مسـتكرهة، تشقُّ على اللسان وتستكدُّه ورأيتَ غيرَها سهلة لينة رطبة مُواتية سـهلة النظام، حتى كأن البيتَ بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحد لم يخفَ على من كان أهله»[٢٧].

فمُصطَلح السبك في تراثنا اللُّغَويّ عند الجاحظ والإمـام عبد القاهر الجُرجَانيّ وغيرهما هو نفسـه مُصطَلح الاتسـاق الذي شـكّل دعامة من دعاماتِ الأسس النَظَريّة للسـانياتِ النَّصّ إلى جانب الحَبك وهـو الانسـجامُ والترابـط والعلامـة والموقـف أو السـياق والتناصّ الذي عُبِّرَعنه في أدبياتنا القديمة بالسرقةِ والأخـذِ والتضمينِ والاقتباس وما شـاكلَ هذه الاصطلاحات التي لم يخلُ منها كتابٌ في النقد والبلاغة العَرَبيّة.

إنّ هذه الوَمضات اللّسَـانيّة التي يمكنُ للدارس أن يلتقطهـا من دَلائِل الإعجَـازِ، دليلٌ قاطع على أن الإمام عبد القاهر الجُرجَانيّ كان يمتلك وعيا لِسَانيّا عميقا لا يخالف البتة ما ذهبتْ إليه المدارسُ اللّسَانيّة الحديثة، يقول د. تمام حسـان: «... أنّ دراسة عبد القاهر للنَّظم وما يتّصل بـه تقفُ بكبرياءٍ كتفا إلى كتفٍ مع أحدثِ النَظَريّات اللُّغَويّة في الغرب، وتفوقُ معظمَها في مجال فهم طرقِ التركيب اللُّغَويّ هذا مع الفارق الزمني الواسـع الـذي كان ينبغي أنْ يَكونَ للجهود المحدثـة على جهد عبد القاهـر»[٢٨]، ولعل انكبـاب الإمام على قضية النّظـم ورغبته الجامحة في تفنيـد حجـج المعتزلة هـي ما أذكـتْ عنده هذا الحسّ اللّسَانيّ الدقيق، وتأسيسه لمشروعه الفكري في أسرار البلاغـة، فـكانَ تتبُّعُه لمناحـي الإعجاز في التركيب القرآني وشعرِ العرب لإثبات إعجاز القرآن وردّه إلى ائتـلاف اللَّفـظ والمَعنَـى، طريقـا فتح له المـدارك التي غابت عن غيره مـن البَلاغيّين والنقاد قبله إذ كان انشـغالهم بقضية اللَّفظ والمَعنَى عائما في السطح، يغلبُ عليه الجدل الكَلاميّ وليس الجدل العلمي الذي كان طريقا موصلا نحو وضع الأسس اللّسَانيّة في الدرس البَلاغيّ الذي انتقلَ به الجُرجَانيّ من حدودِه التقليدية القائمـة على البعد الخطابي، متجـاوزًا حـدود الممارسـة النحويـة القائمة على التصنيـف والتبويب والتعليـل إلى التأصيل العلمي بوضع أصوله العلمية، ممثلة في علم المعاني والبديع والبيان مثلما أنَّهُ سيجعل النحو العَرَبيّ منعتقا من دائرتـه الضيقة ليربطه بالبلاغـة والفصاحة، وكلّ هـذا كان منبثقا من ينبوع واحـد هو إثبات إعجاز القـرآن في ظل الجـدل الكَلاميّ المحتـدم في عصره الـذي كانت فيه السـلطة كلها للمعتزلـة، يقول د. عبـد المجيد طلحـة: «ينصرف جهـد الجُرجَانيّ في الاستدلال اللُّغَويّ إلى إثبات ملكية الأقوال وارتباطها بأصحابهـا؛ ذلك ان مدار المشروع الجُرجَانيّ يقوم على إثبات خصوصية النّظـم القرآني على غيره من

(٢٧) الجاحـظ، البيـان والتبيـين، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص ٦٦.

(٢٨) تمام حسان، المرجع نَفسُه،، ص.ص ١٨ـــ ١٩.

اشـكال النّظم البشري، أي ما يكون به القول ملكا لصاحبه، فرغم اشتراك المتكلمين البشري والإلهي في الألفاظ فإنّها تتخصص بمجرد توخّي النّظم»[٢٩]، وقـد تـم ذلـك عـبر محطـات حِجَاجية سـواء في المقدمات التي عرضَها أو في المتن، عبر الهدم والبناء فهو يعرض حجة الخصوم ويفنّدها بالدليل القائم على الشِّعر والقرآن والنحو والعلم والنّظم والتمثيل والتصوير وغيرها من صور الحِجَاج التي زخر بها دَلائِل الإعجَازِ، يقول د. عز الدين علي مختار علي في محور مقدمـات الخصوم: «نقصد بها المقدمات أو الحُجـج التي نقلها الجُرجَانيّ مـن أقوالِ خصومه والتي تتعارض مـع تصوراته أيما تعارض، والتي مـن ثم أخـذ في الردّ عليها بغيـة إبطالها ودحضها وهدمهـا؛ الأمر الذي يؤكـد أن الحِجَاج في «الدلائل» مبني على أسـاس البناء والهدم» كما هو مبنيٌ على «طـرح يعيد مسـاءلة قضية مُعينة تسـتوجب من المُحاجج اتخـاذ موقف بصددهـا بتقديم منظوره الخاص، ومحاولة إحداث التأثير المُرَاد على المخاطب باعتباره النتيجة الطبيعية للمحاجة» وهكذا يكون الجُرجَانيّ قد أفسـح الطريـق ـــ عبر بناء مشروع بَلاغـيّ حِجَاجـي جديد ـــ لمن سـيأتي بعده من البَلاغيّين للسـير بالدرس البَلاغـيّ قُدُما نحو مزيد من العلميّة كما في مفتاح العلوم للسكّاكي (٥٥٥ـــ ٦٢٦هـــ)، ومنهـاج البُلغَـاء لحـازم القرطاجنّي (٦٠٨ ـ ٦٨٤هـــ) في مرحلـة متقدمـة من تاريخ درسـنا البَلاغـيّ، مُرسـيا بذلـك الأسـس اللُّغَويّة التـي ستَسـتدعيها المدارسُ اللّسَـانيّة على اختلافِ توجهاتهـا وتلتقطها مـن حقلِنا البَلاغـيّ التُّرَاثي، وتعملُ على اسـتدماجها في مشروعها اللّسَـانيّ عبر تحويراتٍ اصطلاحيّة، ظلت تُخفي المضمونَ الدلالي للأجهـزة المَفَاهيميّة كما نشـأتْ في المحضن الثقافي العَرَبيّ، فأطلقت اللّسَـانيّات مُصطَلحات من قبيل البنيـة والإنجـاز والاتسـاق والنحويـة وغيرها من المُصطَلحات، التي وردت في الحقل اللُّغَويّ والبَلاغيّ العَرَبـيّ بإطلاقـات هي النَّسـق والنّظم والسّـبك والائتلاف والتماسـك وغيرها، وإن كانت المنطلقات الابسـتمولوجيّة والثقافية مختلفة فإن دور التُّرَاث البَلاغـيّ واللُّغَـويّ يبقى موجها كبيرا وحاسـما في بناء المشروع اللّسَانيّ الحديث لاسيّما مشروع إمام البلاغـة وحجة اللُّغَـة في عصره الإمـام عبد القاهر الجُرجَانيّ في دَلائِل الإعجَازِ.

نتائج البحث

- إثبات السـبق العلمي للـدرس البَلاغيّ العَرَبيّ ممثـلا في كتـاب دَلائِـل الإعجَـازِ في تأسـيس مشروع لِسَانيّ حديث.
- بيان مدى استفادة المدارس اللّسَانيّة في تطوير طروحاتها انطلاقا من الـتُّرَاث اللُّغَويّ العَرَبيّ القديم.
- امتـلاك اللُّغَويّـين والبَلاغيّـين العـرب لوعي إبسـتيمي شديد العمق في التعامل مع الظاهرة اللُّغَويّـة في كلياتها وتمفصلاتها ظهر بشـكل علمي في «الدلائل «
- بيـان تناغـم الممارسـة التأصيليـة والفعـل التحليـلي في دَلائِـل الإعجَـازِ، ما هيـأ الطريق للدرس اللّسَانيّ ليستدعي المفاهيم والأسس اللّسَانيّة التي بنى عليها طروحاته.

(٢٩) عبد المجيد طلحة، جينيالوجيا اللغويات العربية بحث في القيـم التصورية والجمالية عنـد الجرجاني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، سنة ٢٠٢٣، ص ٧٢.

المصادر والمراجع

- أبو عثمان عمرو الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- أريفيه ميشال، البحث عن فردناند دي سوسير، ترجمة وتعليق محمد البقاعي، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
- أمينة الدهري، الحِجَاج وبناء الخطاب، المدارس، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠.
- تمام حسان، اللُّغَة العَرَبيّة مبناها ومعناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، طبعة ١٩٩٤.
- خليفة بوجادي، محاضرات في علم الدلالة، بيت الحكمة، الجزائر، ط١، سنة ٢٠٠٠.
- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دار مصر للطباعة، د. ت.
- سعيد حسن البحيري، علم لغة النَّصّ المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط١، سنة ١٩٩٦.
- سعيد يقطين، انفتاح النَّصّ الروائي النَّصّ والسياق، المركز الثقافي العَرَبيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، سنة ٢٠٠١.
- عبد القاهر الجُرجَانيّ، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، بالقاهرة ودار المدني جدة، د.ت.
- عبد القاهر الجُرجَانيّ، دَلائِل الإعجَازِ، قراءة وتعليق العلامة محمود محمد شاكر، مكتبة المدني، د.ت.
- عبد المجيد طلحة، جينالوجيا اللُّغويّات العَرَبيّة.. بحث في القيم التصورية والجمالية عند الجُرجَانيّ، افريقيا الشرق، طبعة ٢٠٢٣.
- عز الدين علي مختار، حِجَاج الجُرجَانيّ لنَظَريّته في الفصاحة من كتابه «دَلائِل الإعجَاز»، عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ١٨٩ يناير ـــ مارس ٢٠٢٣.
- فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، دار النعمان للثقافة، لبنان، د. ط، ١٩٨٤.
- فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني ومراجعة أحمد حبيبي، إفريقيا الشرق، ١٩٨٧.
- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النَظَريّة النحوية تأسيس نحو النص، المؤسسة العَرَبيّة للتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العَرَبيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط٨، سنة ٢٠٠٨.